

تفسير البحر المحيط

@ 303 @ بَعْدَ مَوْتِهَا { قيل : لما خرَّ بخت نصر البابلي بيت المقدس ، حين أحدث بنو اسرائيل الأحداث ، وقف أرمياء ، أو عزيز ، على القرية وهي كالتل العظيم وسط بيت المقدس ، لأن بخت نصر أمر جنده بنقل التراب إليه حتى جعله كالجبل ، فقال هذا الكلام . . قال الزمخشري : والمار كان كافراً بالبعث وهو الظاهر لانتظامه مع نمروذ في سلك ، ولكلمة الاستبعاد التي هي : أُنْزِيَ يحيى ، وقيل : عزيز ، أو : الخضر ، أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم . انتهى . . وقال أبو علي : لا يجوز أن يكون نبياً لأن مثل هذا الشك لا يقع للأنبياء . والإحياء والإماتة هنا مجازان ، عبر بالإحياء عن العمارة ، وبالموت عن الخراب . وقيل : حقيقتان فيكون ثم مضاف محذوف تقديره : أُنْزِيَ يحيى أهل هذه القرية ، أو يكون هذه إشارة إلى ما دل عليه المعنى من عظام أهلها البالية ، وجثثهم المتمزقة ، وأوصالهم المتفرقة ، فعلى القول بالمجاز يكون قوله : أُنْزِيَ يحيى على سبيل التلطف من الواقف المعتبر على مدينته التي عهد فيها أهله وأحبته ، وضرب له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه ، وعلى القول الثاني يكون قوله : أُنْزِيَ يحيى اعترافاً بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء واستعظاماً لقدرة المحيي ، وليس ذلك على سبيل الشك . وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال : كان هذا القول شكاً في قدرة الله على الإحياء ، فلذلك ضرب له المثل في نفسه . . { فَأَمَّا تَتَّهُ اللَّهُ مَلَأَتْهُ عَامٌ ثُمَّ بَعَثَتْهُ } أي أحياه وجعل له الحركة والانتقال . قيل : لما مر سبعون سنة من موته ، وقد منعه من السباع والطير ، ومنع العيون أن تراه ، أرسل الله ملكاً إلى ملك من ملوك فارس عظيم يقال له لوسك ، فقال له : إن الله يأمرك أن تنفر بقوم ؛ فتعمر بيت المقدس وإيلياء وأرضها حتى تعود أحسن ما كانت ، فانتدب الملك قيل ثلاثة آلاف قهرمان مع كل قهرمان ألف عامل ، وجعلوا يعمرونها ، وأهلك الله بخت نصر ببعوضة دخلت دماغه ، ونجى الله من بقي من بني اسرائيل وردتهم إلى بيت المقدس ونواحيه فعمروها ثلاثين سنة ، وكثر واحتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه . . { قَالَ كَمْ لَبِثْتُ } . الظاهر أن القائل هو الله تعالى لقوله : { كَيْفَ نُنْشِزُهَا } وقيل : هاتف من السماء ، وقيل : جبريل ، وقيل : نبي ، وقيل : رجل مؤمن شاهده حين مات وعمر إلى حين إحيائه . . وعلى اختيار الزمخشري لم يكن بعد البعث كافراً ، فلذلك ساغ أن يكلمه الله . انتهى . ولا نص في الآية على أن الله كلمه شفاهاً . .

و : كم ، ظرف أي : كم مدّة لبثت ؟ أي : لبثت ميتاً وهو سؤال على سبيل التقرير . .
{ قَالَ لَيَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } قال ابن جريج ، وقتادة ، والربيع :
أما ته [] غدوة يوم ثم بعثه قبل الغروب بعد مائة سنة ، فقال : قبل النظر إلى الشمس :
يوماً ، ثم التفت فرأى بقية من الشمس ، فقال : أو بعض يوم ، فكان قوله : يوماً على
سبيل الظن ، ثم لما تحقق أنه لم يكمل اليوم ، قال : أو بعض يوم . .
والأولى أن لا تكون ، أو ، هنا للترديد ، بل تكون للإضراب ، كأنه قال : بل بعض يوم ، لما
لاحت له الشمس أضرب عن الإخبار الأول الذي كان على طريق الظن ، ثم أخبر بالثاني على طريق
التيقن عنده . .

وفي قوله : أو بعض يوم ، دليل على أنه يطلق لفظ بعض على أكثر الشيء . .
{ قَالَ بَلْ لَيَبِثُتَ مِائَةَ عَامٍ } بل ، لعطف هذه الجملة على الجملة محذوفة
التقدير ، قال : ما لبثت هذه المدة بل : لبثت مائة عام . .
وقرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم باطهار التاء في : لبثت وقرأ الباقون بالإدغام ، وذلك
في جميع القرآن . .

وذكر تعيين المدة هنا في قوله : بل لبثت مائة عام ، ولم يذكر تعيينها في قوله :
{ قَالَ إِنْ لَيَبِثُتُمْ إِلَّا قَلِيلًا } وإن اشتركوا في جواب : { لَيَبِثُتُمْ } يَوْمًا
أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ { لأن المبعوث في البقرة واحد فأنحصرت مدّة إماتة [] إياه ، وأولئك
متفاوتو اللبث تحت الأرض نحو من مات في أول الدنيا ، ومن مات في آخرها ، فلم ينحصروا
تحت عدد مخصوص ، فلذلك أدرجوا تحت قوله : إِلَّا قَلِيلًا ، لأن مدة الحياة الدنيا بالنسبة
إلى حياة الآخرة قليلة ، وإ[] تعالى محيط علمه بمدة لبث كل واحد واحد ، فلو ذكر مدة كل
واحد واحد لاحتيج في عدة ذلك إلى أسفار كثيرة . .

{ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ } في قصة عزيز أنه لما
نجا من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل دير هرقل